تشكيل الفضاء الإفريقي في رواية "كاماراد" رفيق الحيف والضياع للروائي حاج احمد الصديق

Manifestations of Space in 'Kamrad' by the Novelist Hadj Ahmed Saddiq

عمر زويني[1] ، عاشور سرقمة[2]

[1]جامعة غرداية، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري كلية الآداب واللغات ، zouini988@gmail.com

[2]جامعة غرداية، مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري كلية الآداب واللغات sergmaachour@yahoo.fr،

تاريخ الاستلام: 2022/03/03 تاريخ القبول: 2022/11/08 تاريخ النشر: 2022/11/14

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الإحاطة بأحد العناصر الفنية الأكثر حضورا وتميزا في أي عمل فني وهو الفضاء.فمن منطلق أن رواية " كاماراد " تناولت الهجرة السرية عند الأفارقة, سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية, البحث عن تشكلات الفضاء الزنجي الإفريقي في رواية " كاماراد " , وسنحاول البحث عن ملامح هذا الفضاء من خلال تمظهراته وبنائه, ومن خلال اللغة ؛ أي من خلال جوانبه الفنية التي تمنحه جماليته وفرادته هذا من جهة, ومن جهة أخرى محاولة استقراء هذا المحمول الثقافي الإفريقي من عادات وطقوس وأسماء وشخصيات التي تحمل الخصوصية الإفريقية . معتمدين على مجموعة من الأدوات الإجرائية منها؛ الوصف والاستقراء والتحليل.

الكلمات المفتاحية: تشكيل- الفضاء- الإفريقي

Abstract:

This study seeks to capture one of the most present and distinct artistic elements in any artwork, which is space. As the novel "Kamarad" dealt with the clandestine migration of Africans, we will try, through this research paper, to search for the formations of the African space in the novel "Kamarad". We will try to search for the features of this space through its manifestations and construction,and through language; that is, through its artistic aspects that give it its beauty and uniqueness .Furthermore, this study is an attempt to extrapolate the African cultural load in "Kamarad" terms of the customs, rituals, names and personalities that bear the African peculiarity. We will do so by relying on a set of procedural tools, including description, extrapolation and analysis.

Key words: Manifestations,space ,Africans.

المؤلف المرسل: عاشور سرقمة، **الإيميل:** sergmaachour@yahoo.f

مقدمة :

إن تحليل الفضاء الروائي من أجل القبض على الدلالة الشاملة للعمل الروائي يقتضي منا منهجيا الإشارة إلى هناك أشكال متعددة للفضاء عند النقاد, فنجد الفضاء الجغرافي Espace Géographique كما يسميه (بورنوف), والفضاء الدلالي Espace Seminantique كما يسميه (جيرار جينيت), والفضاء النصي Espace Textuel كما يراه (ميشال بوتور), والفضاء كمنظور.ومن هنا نتساءل: هل الفضاء الروائي هو إحدى هذه الأشكال؟ أم أن كل هذه الأشكال في النهاية تشكل الفضاء الروائي؟ هذا من جهة ومن جهة أخرى إن تشكل الفضاء في الرواية يقتضي منا تحديد العلاقة بين هذه الأشكال لرصد فنيات تشكل الفضاء الروائي.

فمن منطلق أن رواية " كاماراد " تناولت الهجرة السرية عند الأفارقة, سنحاول من خلال هذه الدراسة, البحث عن تشكلات الفضاء الزنجي الإفريقي في رواية " كاماراد" والبحث عن ملامح هذا الفضاء من خلال تمظهراته وبنائة, وأبعاده الدلالية و اللغوية؛ أي من خلال جوانبه الفنية التي تمنحه جماليته وفرادته, ومحاولة استقراء هذا المحمول الثقافي الإفريقي من عادات وطقوس, وأسماء وشخصيات التي تحمل الخصوصية الإفريقية .

مهاد نظري:

دراسة بنية وتشكيل الفضاء الروائي له أهمية كبيرة في الدراسات السردية؛ فالفضاء الروائي يمثل بنية النص المركزي, ومتن العمل الروائي, حيث من خلاله تصنع أدبية الرواية, فلهذا حظي بالنقد والدراسة لدى مختلف النقاد, فعرف لدى النقاد بتعدد أشكاله ومفاهيمه المتداخلة ولتحديد هذه الأشكال والمفاهيم استندنا إلى ما وضحه "حميد الحمداني" وقد أثنى عليه في ذلك الناقد حسن نجمي اعترافا بما قدمه حميد الحمداني في هذا المجال من خلال كتابه: « بنية النص السردي " الذي قدم توضيحا دقيقا لهذه المفاهيم المتداخلة وتحديد مفهوم الفضاء الروائي, ونجح إلى حد بعيد في تجميع أهم مكونات الفضاء الروائي" (حسن نجمي شعرية الفضاء, المتخيل والهوية في الرواية العربية) فحدد مفهوم مكونات الفضاء الشائعة عند الغرب والتي لا تقدم مفهوما واحدا للفضاء, وتتمثل هذه المكونات كالآتي:

الفضاء الجغرافي :

« وهو مقابل لمفهوم المكان ويتولد عن طريق الحكي ذاته, إنه المساحة التي يتحرك فيها الأبطال أو يفترض أنهم يتحركون فيها» (ابراهيم عباس الرواية المغاربية. صفحة:217), حيث يأخذ الفضاء بعدا جغرافيا إذا كان يسم دلالات المكان في العمق, ويوجه القارئ إلى مواقع معروفة ومنتظمة بكل حيثياتها, وترتبط في بعض الأحيان بواقع معين في مرحلة معينة بتاريخها آثارها الباقية. فترى جوليا كريستيفا « أن عبارة الفضاء الجغرافي تطلق على بعض البنيات الخطابية التي تظهر خلال مرحلة تاريخية مرتبطة بايديولوجيم العصر الذي يميز تلك المرحلة» (Julia Kristeva .Le texte du roman .p182)

الفضاء الدلالي :

« يشير إلى الصورة التي تخلقها لغة الحكي وما ينشأ عنها من بعد يرتبط بالدلالة المجازية بشكل عام» (إبراهيم عباس الرواية المغربية صفحة 217), يشير إلى المجازية ومالها من أبعاد دلالية عن طريق اللغة؛ حيث أن استعمال اللغة استعمالا مجازيا يساهم في تضاعف وتعدد الدلالات, فيشكل الفضاء الدلالي من خلال ذلك التأسيس بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

إن ماهية الفضاء الدلالي لا تتحدد بمستوى اللغة البسيطة, ولا يتحدد بمستوى المقاربات المكاني الجغرافية بل « إن الفضاء موجود على امتداد الخط السردي. إنه لا يغيب مطلقا حتى ولو كانت الرواية بلا أمكنة, الفضاء حاضر في اللغة في التركيب في حركية الشخصيات وفي الإيقاع الجمالي لبنية النص الروائي» (إبراهيم عباس الرواية المغاربية الصفحة: 217)

الفضاء النصي :

وهو الفضاء المتعلق بالجانب الطباعي والأدوات الإجرائية كتصميم الغلاف وتنظيم النصوص والأحرف الطباعية, فهو لا يتشكل إلا عبر مساحة الكتاب وأبعاده. يقول ميشال بوتور « إن الكتاب كما نعهده اليوم, هو وضع مجرى الخطاب في أبعاد المدى الثلاثة, وفقا لمقياس مزدوج هو طول السطر, وعلو الصفحة» (ميشال بوتور بحوث في الرواية الجديدة الصفحة: 112). فالأدوات الإجرائية في فن الإخراج الطباعي لها دور بالغ الأهمية في

التعريف بالنص ومنحه دلالات إضافية تدعم الحس القرائي نحو التلقي الجيد, الفضاء. النصي «لا يخلو عن أهمية إذ أنه يحدد أحيانا طبيعة تعامل القارئ مع النص الروائي و الحكائي عموما, وقد يوجه القارئ إلى فهم خاص للعمل» (حميد الحمداني بنية النص السردي الصفحة: 56)

يتشكل الفضاء النصي في الرواية من خلال: الكتابة الأفقية و الكتابة العمودية, والتأطير , والبياض, وأنواع الكتابة, والتشكيل التبوغرافي...الخ

الفضاء كمنظور:

« ويشير إلى الطريقة التي يستطيع الروائي (الكاتب) بواسطته أن يهيمن على عالمه الحكائي بما فيه من أبطال يتحركون على واجهة تشبه واجهة الخشبة في المسرح » (حميد الحمداني بنية النص السردي الصفحة:61-62), حيث أن الفضاء كمنظور يتعلق بزاوية النظر (Pountduvue) التي ترجع إلى رغبة الراوي وقدرته على توزيع الأدوار السردية بين مختلف الشخصيات الفاعلة في الحكي التي تثير دينامية الرواية وتحولها إلى رؤية فكرية إيديولوجية متعلقة ببنية ثقافية لمجتمع ما.

ومن خلال هذه التعريفات يتضح لنا من مفهومي الفضاء الجغرافي والفضاء النصي أنهما يعنيان المساحة المكانية التي تعنى بالبنية المعمارية في الواقع أو على الورق, وفي كلتا الحالتين يمكن أن نصل من خلالهما إلى المغزى الفكري والأيديولوجي وحتى الرمزي للنص (ينظر إبراهيم عباس, الرواية المغاربية.صفحة:217) .

الفضاء الجغرافي وفضاء النص هما مبحثان حقيقيان في فضاء الحكي باعتبارهما المكان المحرّك للأبطال. أما الفضاء الدلالي فهو الصورة المتواجدة في الحكي، والفضاء كمنظور هو وجهة نظر الراوي للرواية. ومن هنا نستنتج أن المكان بتعدد أوجهه وأشكاله فإن فضاء الرواية هو الذي يجمعها ويلفها جميعا.

ولهذا يقول حميد الحمداني « إن الفضاء في الرواية أوسع وأشمل من المكان, إن مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر أو تلك التي تدرك بالضرورة, وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية. ثم إن الخط التطوري الزمني ضروري لإدراك فضائية الرواية بخلاف المكان

المحدد, فإدراكه ليس مشروطا بالسيرورة الزمنية للقصة » (حميد الحمداني بنية النص السردي.صفحة: 64)

قراءة في الرواية:

الحامل لرواية (" كاماراد " رفيق الحيف الضياع) يشد نظره وانتباهه هذا العنوان الأعجمي والمكتوب بالحروف العربية, مرفوقا بعنوان فرعي " رفيق الحيف والضياع ". من المعلوم أن لفظة كاماراد في الفرنسية تعني الصديق أو الرفيق, فأول سؤال يتبادر إلى ذهن القارئ: لماذا كاماراد ؟ وما به كاماراد؟ لكن بعد قراءة العنوان الفرعي يتبادر الجواب: أن هذا الكامارد هو رفيق الحيف والضياع, فجاء الشق الثاني مرافقا وحاملا للشق الأول.

فعند قراءة العنوان بشقيه نجد أن الشق الأول المتمثل في العنوان الرئيس (كاماراد) هو اسم تعريفي للرواية ليميزها عن أي نص آخر, بينما الشق الثاني المتمثل في العنوان الفرعي: (رفيق الحيف والضياع) يرتبط بالجانب الدلالي المعمق للرواية, فيعطي تصورا أوليا للمسار الذي ستسلكه وقائع و أحداث الرواية المحفوفة بالصعاب والمخاطر؛ فرفيق الحيف والضياع تدل على أن هناك رحلة طويلة إلى حد التيه والضياع سيسلكها بطل الرواية, ونكتشف حيثيات هذه الرحلة من خلال ولوج عالم الرواية.

عند قرائتنا للرواية يتجلى لنا موضوع الرواية من العتبات الأولى للنص. تتحدث رواية "كاماراد" عن ظاهرة معاصرة لطالما أرقت الشعوب المتخلفة والمتحضرة معا, وهي الهجرة الغير الشرعية, موضوع الهجرة اتخذه الكثير من الروائيين الجزائريين كتيمة رئيسة لرواياتهم أمثال: ربيعة جلطي, والحبيب السايح, وبوعلام صنصال, فتناولوا هذه القضية عند الجزائريين؛ أي تلك الهجرة نحو أروبا من أجل حياة أفضل, لكن ما تتفرد به رواية كاماراد أنها تناولت الهجرة الغير الشرعية عند مجتمعات منسية ومهمشة طالما عانت من الفقر والأوبئة والحروب الأهلية والانقلابات والتضييق عن الحرية, وهم الأفارقة؛ يتحدث الزيواني عن هجرة الأفارقة– المتواجدون مع الحدود الجزائرية كمالي والنيجر وغيرها– نحو الجزائر ثم التوجه إلى أروبا حيث الفردوس المفقود.

صفة (كاماراد) في الرواية لا تعني الصديق أو الرفيق فقط, بل هي صفة تلتصق بالأفارقة بالتحديد, بمجرد دخولهم إلى الجزائر والمغرب, فصفة (كاماراد) بمثابة تميمة للنجاة أثناء عبور الحواجز الأمنية بالجزائر والمغرب.

يختار الروائي الزيواني موضوع روايته بعناية شديدة, وشغف كبير جدا, فنجدها محشوة بكم هائل من المعارف والمعلومات في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والتاريخية والجغرافية وحتى النفسية, لهذا يمكن تصنيفها ضمن الرواية المعرفية, هي رسالة إنسانية إلى العالم بأسره, ينقل الروائي من خلالها تلك المعاناة التي يتخبط فيها هؤلاء الأفارقة في صمت بعيدا عن الأضواء.

الهروب من الأوبئة والفقر والحروب الأهلية نحو فردوس أوروبا المزعوم ذالكم, هو حلم وهاجس "مامادو " بطل الرواية مع رفاقه. هو حلم لن يتأتي إلا عبر رحلة محفوفة بالمخاطر والمهالك. رواية كاماراد تروي قصة مامادو مع الهجرة الغير الشرعية, مامادو الذي يروي قصته بكل تفاصيلها إلى المخرج السينمائي "جاك بلوز "هذا الأخير بعد فشله في نيل جائزة السعفة الذهبية بمهرجان كان السينمائي, يرتحل إلى أدغال إفريقيا وبالتحديد إلى النيجر, من أجل كتابة سيناريو فيلمه الجديد عن الهجرة السرية..وبمفارقة جاءت كعزف القيتار, يلتقي جاك بلوز بمامادو هذا الأخير جاء حديثا من الدار البيضاء بالمغرب بعد ما فشل في اجتياز السياج بمدينة سبتة للوصول إلى الفردوس الوهم بأوروبا... فيطلب " جاك بلوز " من " مامادو " أن يروي له رحلته التي دامت ستة أشهر, أقل ما يقال عنها أنها قاسية وشبه مميتة.

يبدأ "مامادو" بسرد قصته التي تنطلق من حي شعبي بالنيجر يعرف ب (كمكلي) ومنه ينحدر البطل "مامادو" ورفاقه الذين يقررون الهجرة إلى فردوس الأحلام, وهي رحلة مليئة بالمغامرة والضياع والعذاب في صحراء النيجر وتمنراست مرورا بتوات وتلمسان بأرض الجزائر وصولا إلى الأراضي المغربية, ومن الفنيدق يتم اختراق السياج ليلة أعياد الميلاد, لكن هذا الاختراق الحلم لم يتم وباء بالفشل فردوه على متن الطائرة إلى بلده النيجر.

يختصر الروائي مسار وأحداث رحلة"مامادو" من خلال مقتطف واحد يقدم لنا من خلاله فهرس الرحلة, يقول على لسان خادم الفندق : «أن يكون الرفيق الكامارادي عرف دروب الهجرة وهوامشها, أي:

دخل القبر وعاش البرزخ فيه

شاهد النفخ في الصور

حضر المحشر
مر على الصراط
زار مدن الأحلام
خالط هامش مدن الضواحي كثيرا
أخيرا حضر الرجة الكبرى»

يقدم الروائي من خلال هذا المقتطف مسار وأحداث الرواية ليتجول بنا حول عوالم الهجرة السرية, وهوامش الأفارقة في مسار تحقيقهم حلم الهجرة إلى أروبا, ببرامج سردية بديعة استمدها من رحلة البعث بعد الموت, من القبر ثم البعث ثم النفخ في الصور ثم المحشر مرورا بالصراط إلى مدن الأحلام كعين قزام التي أطلق عليها مارسيليا كاماراد, تمنراست باريس كاماراد وهذه الأخيرة عاشوا فيها شقاء النعيم والغربة والتيه والحيف والضياع, ثم إلى أدرار التي وصفها بروما كاماراد إلى الدنو من سدرة المنتهى وأخيرا باءت الرحلة بالفشل.

وصف ولايات الجزائر بهاته التسميات يستدعي التساؤل لماذا روما كاماراد؟ لا شك أن هذا يدل على أن هذه الولايات يجد فيها الأفارقة وضعا أفضل بكثير من مناطقهم فيتصوروا مدن أحلامهم وراء البحر من خلال المناطق التي يمرون بها كعين قزام تمنراست و أدرار...

يسرد الروائي الحكاية بشغف كبير, وبتحكم دقيق في خيوط السرد, لينسج بذلك بنية تتسم بالعجائبية والغرائبية, وبتقنيات مطعمة بالموروث الشعبي الإفريقي, ليغوص بنا في الذهنية الإفريقية بعين سينمائية, فيقدم لنا كل التفاصيل الدقيقة, بشكل مبهر وملفت, لمهارته في القبض على ملامح وتضاريس وجوه الشخصيات, وكذلك معالم المدن الإفريقية, فتأسرك القراءة إلى آخر حرف من النص.

وما يلفت انتباه القارئ هو افتتاح الرواية برسالة مهاجر إفريقي غريق تناقلتها وسائط التواصل الاجتماعي, جاءت كنص موازي اختصر فيه مآسي الرجل الإفريقي, والكشف عن تضاريس البؤس بشتى المجالات سياسيا واجتماعيا واقتصاديا, رسالة جاءت كتفريش للرواية تهيئ القارئ لما سيتلقاه. وكما أنه أيضا ينهي الرواية لما له علاقة بمواقع التواصل الاجتماعي, من خلال المنشور الذي نشره " جاكبلوز " على صفحته في التويتر والفايسبوك

عن الفيلم الوثائقي الذي أعده "مامادو" بعد أن اكتشف جاكبلوز عن قدرته في كتابة السيناريو كلفه بتصوير فيلم وثائقي عن الفقر في إفريقيا الذي عنونه بالوجه الآخر للحياة خلف الصحراء الكبرى , ونجح في ذلك. ليقدم الروائي بذلك نموذج من الحلول لهذه الظاهرة السلبية , فيصرح بذلك في قوله: «لا حل لنا من أخطبوط الهجرة إلا بخلق فرص نشاط تثبت هؤلاء الأفارقة المتعبين بخيبات الحياة وانكساراتهم ببلدانهم.» وهنا إشارة واضحة ومقصودة من طرف الروائي يبرز من خلالها دور الميديا كوسيط في حياتنا الواقعية في عصر أصبح فيه للتكنولوجيا صوتها الذي يكسر الصمت

تشكلات الفضاء الإفريقي في الرواية:

ويمكن رصد تشكلات الفضاء الإفريقي فيما يلي:

مدينة نيامي: (القبر)

إن الشيء الملاحظ, أن الرواية تحدد موقعها بدقة, حيث سهب الروائي في رسم ملامح فضائها بالشكل الذي يمكن للقارئ أن يشكل نظرة دقيقة عن مواقع الأحداث.

تبدأ الحكاية بمجرد وصول المخرج السينمائي " جاك بلوز " إلى مطار نيامي عاصمة النيجر, يقدم الراوي هذا الفضاء المختلف بشكل مفصل. فقبيل نزول الطائرة بمطار نيامي, تقوم عين السارد بمسح جغرافي استطلاعي لهذه المدينة, حينما اقترب المخرج من النافذة ليرى ملامح مدينة نيامي, والاستمتاع بنهر النيجر, والبنايات المتناثرة هنا وهناك.

يقدم الراوي الوصف العام للمدينة, وما إن نزل الضيف على أرضية المطار يبدأ بالوصف الدقيق للمكان, « نزل الضيف أرضية المطار على سلم مجرور كان لا يراه إلا من خلال السبعينات (مطار عاصمة دولة يكاد يكون ركنا صغيرا لمطارات الريف الفرنسي)» (الصديق حاج احمد رواية كاماراد رفيق الحي والضياع صفحة:27)هنا تتجلى بنية تقاطبية للفضاء بين فضاء باريس وفضاء نيامي ليحمل بذلك دلالة عميقة توحي بظروف وحالة هذا البلد الإفريقي الذي يعتبر من أفقر البلدان في العالم, ومن تجليات الفقر التي نقلتها عين السارد تلك المناظر التي يرسمها سائقي سيارات الأجرة الذين يفترشون الأرض بمحاذاة مركباتهم المعدودة, وتصرفاتهم الباعثة للدهشة.

من الملاحظ أن الصورة المهيمنة لفضاء نيامي هي تلك الأجواء التي ترسمها مناظر القمامة والأوساخ على الأرصفة التي تعكس مدى معاناة وبؤس هذا الشعب المغلوب على أمره.

حي كمكلي: (فضاء الفقر)

هذا الحي هو البؤرة الرئيسة الذي انطلقت منه أحداث الرواية, بالتحديد من الفندق الذي نزل به " جاك بلوز " بالقرب من هذا الحي جاك بلوز يحجز غرفة مطلة على هذا الحي المصنف كأفقر حي بالعاصمة, فبالرغم من أنه على علم أن هذا المكان لا يليق بجلالته بسبب الروائح النتنة والمناظر المقززة, لا يحبذ الإقامة بتلك الغرفة إلا الأفارقة لثمنها الزهيد, إلا أنه قبل بذلك لحاجة في نفسه. يقوم الراوي بمسحة شاملة لهذا الحي حينما يتحدث عن " جاك بلوز " وهو يشاهد الحي الشعبي من النافذة يقول: « مكث مدة يشاهد الحالة العامة للحي, بيوت طينية بائسة, مغطاة بأعواد الكرنك, الأوساخ والقمامة في كل مكان دون استثناء .. أطفال نصف عراة, نساء ضامرات, شيوخ خماص, أشياء لا تخطر على البال... » (الرواية: صفحة:23) هذا المشهد كان بمثابة افتتاحية لمواصلة سرد أحداث الرواية, فقد قدم فيه الكاتب جوا مقرفا وكريها.

الصورة المهيمنة على هذا الفضاء هي صورة الفقر بمختلف تجلياته, فهو فضاء للجوع والقهر والأوبئة التي تنتشر انتشارا لا حد له. وبعد هذا المشهد الذي يختزل ملامح هذا الحي ينتقل الدور من الراوي السارد إلى الراوي داخل الحكاية المتمثل في شخصية "مامادو" ليقدم وصفا بعين سينمائية لهذا الحي المليء بالمفارقات. فمن المفارقات العجيبة أن في هذا الحي فئة من الأغنياء, لكن لا يكاد يفرق بينهم وبين فقراء هذا الحي بسبب طغيان الأوساخ والقمامة وانتشار البيوت القصديرية في كل مكان.

هنا الكاتب يبرز جانبا مهما عند المجتمعات الإفريقية وهو الفقر والأوبئة, فجسد ذلك من خلال هذا الفضاء الذي يمكن تسميته ب (فضاء الفقر), الفقر هو عدو للإنسان مثله مثل خطورة الحروب وويلاتها. يشبه الكاتب هذا الفضاء بالقبر لظلماته وأهواله, التي تسبق مرحلة البعث ما بعد الموت, وكأن هؤلاء الأفارقة شبه أموات لعدم توفر أدنى متطلبات الحياة. وزيادة على ذلك انتشار الأمراض والمجاعة, يقدم لنا الراوي مشهدا عن ظاهرة المجاعة في قوله: « لا زلت أذكر ذلك المشهد الاستثنائي في فيلم الحرمان الذي روته لي أمي وأتمنى

أن تتقن إخراجه بعدستك سيدي المخرج (إن فيهم من يتبع غيران النمل !! يغوص فيها بعوده ينقب عن الحبوب التي يكون مجتمع النمل قد ادخرها لشتائه. صورة مدهشة حقا لا أخالها تخطر على قلب بشر) » (الرواية صفحة: 44)

فعلا مشهد لا يخطر على بال بشر, مشهد واحد يلخص لنا كل أنواع البؤس والحرمان, مشهد تقشعر منه الأبدان...فهذا كان في العاصمة (نيامي) ناهيك عن القبائل والأحياء النائية عن المدينة.

كانت علاقة الإنسان الإفريقي مع هذا الوضع علاقة تعايش, أو محاولة العيش في ظروف قاسية, لكن هذه الظروف دفعت الكثير من الشباب للتفكير بالهجرة هروبا من هذا الجحيم والعذاب, وهي مرحلة البعث كما يسميها الكاتب والاستعداد للرحيل, والنفخ في الصور والمرور على الصراط إلى الفردوس المفقود.

مدينة طاوة: (المحطة الأولى)

هو مكان من الأمكنة المفتوحة في الرواية, يقدم له الراوي وصفا باعتماده على حركة الشخصيات لرسم أبعاد المكان وطبيعته من الداخل, وكذلك طبيعة العلاقات التي يفرضها المكان على الشخصيات المتحركة داخله.

مدينة (طاوة) فضاء تجاري, وهو المحطة الأولى لرحلة (مامادو) ورفاقه إلى الفردوس الوهم, تبتعد هذه المدينة عن العاصمة نيامي حوالي (600 كلم), يقدم وصفا خارجيا للمدينة في قوله: «عندما نزلنا للاستراحة بمدينة(طاوة) منطقة تجارية كبيرة قد قطعنا مسافة (600 كلم) من نيامي, جاء أطفال للمحطة أسمالهم بالية, وجوههم شقية يطوفون بحفنات من التمر التواتي الأحمر اليابس.. » (الرواية صفحة: 110)

مدينة أغادز: (ملتقى طرق الهجرة)

مدينة أغادز تكون المحطة الثانية نحو الفردوس المفقود, فضاء لا فرق بينه وبين فضاء (كمكلي) هو كذلك يعكس ذلك الفقر والبؤس, وانتشار البيوت القصديرية والقمامة والأوساخ. وما يميز هذا الفضاء عن غيره وجود الطوارق بشكل مكثق بسيارات الدفع الرباعي, مما يدل على وجود الغرباء عن هذه المنطقة .

هذا الفضاء كفضاء عبور لشخصيات الرواية, وملتقى طرق الهجرة , وموقع استراتيجي تنشط فيه عمليات التهريب لموقعه المميز, من الشرق طرق التهريب نحو التشاد, من الشمال الشرقي نحو ليبيا, ومن الشمال رأسا نحو الجزائر, فبذلك يقدم الحدود الجغرافية بدقة لهذه المنطقة.

مدينة أراليت : (فضاء تهريب البشر)

(أراليت) المحطة الأخيرة لتخطي الحدود النيجيرية إلى الجزائر. من خلال هذا الفضاء يستحضر خبايا الهجرة السرية للأفارقة نحو جنة الوهم في أروبا, والمتاجرة بأجساد البشر وأحلامهم, مكان ليس فيه قيمة للإنسانية, أين يتحول الإنسان إلى مجرد بضائع تجارية, ليس هم هؤلاء السماسرة سوى الأموال التي يجنونها من وراء نقل هؤلاء الأفارقة.

مكان يلتقي فيه الكثير من الشعوب من مختلف الجنسيات الإفريقية هروبا من جحيم الأمراض والأوبئة بحثا عن حياة أفضل.

عموما فضاء (أراليت) يكشف لنا من خلاله هوامش هؤلاء الأفارقة في مسار تحقيقهم حلم الهجرة إلى أروبا, وما يتخللها من مغامرات وتراجيديا وانكسارات محفوفة بالمخاطر والقسوة والتيه والموت.

تأثير الفضاء الإفريقي في اللغة:

يختار الروائي مكانا يقع في إفريقيا المتمثل في مدينة نيامي عاصمة النيجر, فمنه تنطلق أحداث الرواية, فبالرغم من دينامية أحداث الرواية التي ساهمت في تعدد الأمكنة حتى خارج مدينة النيجر إلى البلدان المجاورة كالجزائر والمغرب, فإن تأثير الفضاء الإفريقي في الرواية من البداية إلى النهاية, من أسماء الشخصيات والأماكن إلى ما يتعلق بالحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد تميز بها الإنسان الإفريقي.

مما نلاحظه أن الراوي لم يترك للقارئ فجوة تستدعي منه الربط والإتمام اعتمادا على تفكيره الخاص؛ فلم يسكت عن أي جزئية فوصف كل كبيرة وصغيرة, عين الراوي عين حاذقة لمعرفته التشكيلية جيدا, وكأنه يرسم المشهد عندما يكتبه, أو يعطيك صورة فوتوغرافية متماثلة أمامك, وأنت تقرأ مقاطع الرواية تشعر بأنك أمام كاتب يكتب بعينه أساسا؛ حيث تحكي العين حكايتها وتحدق عميقا فيما تسرده المشاهد, ليتشكل بذلك ما يسمى بفضائية النظر, التي تحققت بواسطة اللغة.

بلغة عفوية بعيدة عن التكلف, استطاع الروائي " حاج احمد الصديق" أن يؤثث لحكايته بكثير من المعلومات والتواريخ والأخبار بكل صبر وأناة, نكاد لا نجد مشهد دون وصف وتفاصيل. وأنت تقرأ نص (كاماراد) تشاهد مناظر القمامة المقزز, وتشم الروائح النتنة, تشاهد البيوت القصديرية والطينية مبعثرة هنا وهناك, وكذلك في وصف الشخصيات فترى تقاسيم الوجه وشكل الجسم, والتصرفات التي تعكس صورة الشخصيات, باختصار وأنت تقرأ نص (كاماراد) كأنك تشاهد فلما سينمائيا, وهي دعوة صريحة من طرف الروائي لتجسيد الرواية فلما سينمائيا نستشفها من خلال حوار بطل الرواية (مامادو) والمخرج السينمائي (جاك بلوز).

كما أن الروائي لم يكتف بوصف الأمكنة والشخصيات الإفريقية بل حتى الحياة الاجتماعية للمجتمع الإفريقي من عادات وتقاليد وطقوس تميز الإنسان الإفريقي. وسنقدم أمثلة عن تجلي الفضاء الإفريقي من خلال اللغة:

1- وصف الشخوص:

شخصية مامادو : وهو الراوي؛ والراوي هو الشخص الذي يسرد الحكاية, وهو من اختراع المؤلف, وتصوراته الخاصة, وهو – أي المؤلف – الذي يختار له موقعا من الحوادث, والشخوص والعناصر الأخرى المتداخلة في الحكاية كالزمان والمكان. والراوي يطلق عليه بعض الباحثين: السارد, والبعض الآخر يفضل تسميته بالكاتب الضمني.

وهو (محمد), يقول في تقديمه نفسه للمخرج (جاك بلوز) « أكون أنا (مامادو) أو كما ينطقه إخواننا العرب(محمد) ونحاول – نحن الأفارقة – أن نقربه ب (ماحمادو) فدعتنا أعجميتنا إلى حذف (الحاء الممدودة) من وسط الكلمة الأخيرة ليصير كما اسمي » (الرواية صفحة: 39)

هو اسم يحاكي هوية المكان الإفريقي (النيجر) الذي اتخذ منه الروائي موردا لتشكلات فضاء الرواية, ولتعزيز هذا التشكل يصف لنا ملامح (مامادو) يقول: « وجه شقي رسمت عليه ثلاث وخزات أفقية على الوجنة اليمنى ما يقابلها جهة الشمال بقدر بنان الأصبع » (الرواية صفحة: 40) هي سمات يتسم بها الأفارقة.

شخصية سلاماتو : وهي والدة مامادو التي تتميز بقرطها المغرز في أنفها, وهي عادة من عادات الأفارقة

شخصية إدريسو: كذلك هذا الاسم من الأسماء الإفريقية يقول في وصفه: « عشريني بشرته سوداء فاحمة هو أطولنا قامة, أنفه أفطس, شعره قطط, شواربه ممتلئة, بنية قوية عروق وأوردة ذراعية ترسم مشاهد منعرجة » (الرواية صفحة: 37) وهي صفة يكاد يشترك فيها جميع الزنوج الأفارقة.

وهكذا يواصل في وصف شخوص أبطال الرواية الواحد تلو الآخر كعسمانو وغاريكو وساكو .. كلها أسماء تحاكي خصوصية المكان.

2- غرائبية وغموض الإنسان الإفريقي:

كما أن الراوي يتحدث عن بيئة إفريقية تسكنها العادات والتقاليد, التي تعكس غرائبية وغموض الإنسان الإفريقي, ويمكن رصدها فيما يلي:

حب الرقص: من العادات المدهشة التي تميز الأفارقة ظاهرة الرقص تعبيرا عن الفرح في كل الأحوال, كما فعل صاحب التاكسي حينما أعطى له (جاك بلوز) أجره أكثر مما طلب, فعبر عن فرحه برقصة خفيفة وهو يردد عبارة الفرح بلهجة قبائل (الهوسا) « كاي شيكا..كاي شيكا» (الرواية صفحة 21) . وكما يستحضر أيضا تاريخ (نيلسون مانديلا) أيام التمييز العنصري ورقص الشعب خلال الانتفاضة. وأيضا ما يفعل اللاعبون الأفارقة في النوادي الإفريقية عندما يسجلون الأهداف يهرولون نحو زوايا الملعب ويعبرون عن فرحهم بلغة أجسادهم. وهذا يستدعي الدهشة والإعجاب بهذا السمت الاحتفالي المتميز.

ومن العادات أيضا تميز بها نساء (حي كمكلي) وغيره من الأحياء الإفريقية, وهي غرز قرط حديدي في فتحة أنوفهن, ووهي عادة من عادات نساء القبائل الإفريقية.

ومن أكثر الغرائبيات الباعثة للدهشة في قوله: « قبيلة (سوري) الأثيوبية تحرص على تطويل شفاه نسائها لتكثير أبقارها» (الرواية صفحة:38)

ومن الغرائبيات أيضا عندما تدعو الأم على ولدها بالشر تخرج ثديها لابنها في قوله عن رفيقه (عسمانو) الذي منعته أمه من الهجرة : « بعد القسم المغلظة لأمه (حليماتو) وجهرها له بدعوة الشر (أمارتها عندنا إخراج الأم ثديها لابنها) » (الرواية صفحة: 53)

ومن العادات أيضا إيمان المجتمع الإفريقي بفكرة العجائبية في ذهنه ومحبول بالأساطير المخلصة, كتميمة (غونكي) التي وصت بها (سلاماتو) ابنها (مامادو) ليتحصن بها خلال رحلته, فهذه التميمة تعبر عن اعتقاد الإنسان الإفريقي بخلاص الأساطير, وتفسيره للظواهر الكونية, لهذا الغرض وظفها الكاتب في النص.

هذه كانت نماذج مختصرة وضحنا من خلالها كيف تشكلت لغة الرواية من الخصوصيات التي يتميز بها العالم الإفريقي, فجاءت لغته تحاكي لغة المكان الذي اتخذت منه لغة الرواية موردا لتشكلاتها, لألفاظها, وأيضا لدلالتها. وفي هذا يمكن القول انطلاقا من مقولة عربية قديمة في البلاغة العربية تنص" على أن يراعى لكل مقام مقال " وهذا تحقق في الرواية؛ حيث جاءت الألفاظ والعبارات متناسقة ومنسجمة مع موضوع وفضاء الرواية, ومن هذا المعنى ينطلق (عبد القاهر الجرجاني) ليؤسس نظرية النظم التي يذهب في تعريفها« أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب, حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض, ويجعل هذه بسبب من تلك » (عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز ص: 55)

وهذا ما نجده في نص (كاماراد) قد نظم كلمه على ما يقتض الحال, فكانت البيئة الإفريقية حاضرة من خلال تأثره بهذا الفضاء بكل أبعاده, فمن خلال اللغة شكل لنا مصابيح سلطت الضوء على زوايا معتمة لم تضأ من قبل, وهي تلك التفاصيل الدقيقة في حياة الأفارقة, وتنقلاتهم هربا من جحيم بلدانهم بحثا عن الفردوس المفقود.

الفضاء الإفريقي بين الواقع والمتخيل:

المكان الواقعي هو مكان لا غرابة فيه, أبعاده وصفاته الخاصة يمكن رؤيتها ولمسها على أرض الواقع, والأحداث فيه مألوفة غير بعيدة عن الواقع التاريخي؛ أي « له وجود حقيقي في جغرافية الإنسان الطبيعية المعروفة والمتداولة التي لا خلاف على تحديديها» (محمد صابر عبيد. جماليات التشكيل الروائي. صفحة:237)

الأفضية الإفريقية التي تشكلت من خلالها الرواية نجدها مرتبطة بمرجعيتها الواقعية بدءا من الأفضية الرئيسة إلى الأفضية المتفرعة, إضافة إلى أسماء الشخصيات. وكذلك نجد أن لهذا الفضاء خصوصية متميزة, وهذا يعود إلى ذلك الارتباط الحقيقي للراوي في الحكاية بجغرافية المكان, فنجح في تأطير الفضاء الإفريقي بطريقة فنية يجد القارئ نفسه أمام القصة

لما تمنحه من صدق الإحساس والواقعية, فأسقط إحساسه الشخصي على جغرافية هذا المكان المأخوذ من الواقع المعيش.

ما يمكن أن نقوله هنا هذا النص انطلق من جدلية نشأت عن العلاقة بين الواقع والمتخيل؛ أي بين المرجع لما يحمله من دلالة أحادية وبين احتمالات تمظهره وتجليه بدلالات جديدة مختلفة بواسطة اللغة, وبهذه الأخيرة تحققت أدبية الرواية التي أفلح الكاتب في توظيفها, وتحققت بذلك خصوصية النص, فتلاعب بالزمان وترتيب الأحداث وفق ما يمليه عليه موضوع الحكاية.

حياة المجتمع الإفريقي ربما هي معروفة لدى الكثير, لكن الروائي هنا أعاد صياغة هذا الواقع صياغة جديدة بالغوص في ذهنية الإنسان الإفريقي, ومنح الأمكنة أسماء حقيقية معروفة في الواقع الخارجي, فينقل للقارئ من خلال هذا العمل صورة المجتمع الإفريقي وما يعانيه من بؤس وحرمان, فما هو بؤس وحرمان لمجتمعات أخرى هو بمثابة حلم للإنسان الإفريقي, فصور هذا الواقع بفنية وإبداعية رائعة, حبلى بالتفاصيل الدقيقة التي لا تخطر على البال.

إن واقع الرجل الإفريقي في الرواية في حد ذاته واقع خيالي, فمن الصعب التمييز بين واقعية وخيالية المجتمع الإفريقي, لما له من غرائبية وعجائبية, فتكاد لا تفرق بين واقع هذا المجتمع وخيال الكاتب؛ لأن الإنسان الإفريقي مؤمن إلى حد كبير بالغرائبية. لكن مهما كانت هذه الواقعية صحيحة وحقيقة, فإن هذا لا يعني نفي خيالية المبدع؛ « لأن أي عمل فني هو نتاج خيال مبدع, وهذا الخيال يختلف من فنان إلى آخر ومن نوع أدبي إلى آخر" فالحقيقية في ذهن الفنان شيء يخلق وليست شيئا موجودا أصلا, وما يرمون إليه إيجاد أعراف جديدة تستطيع أن تحدث بصورة أفضل إيهاما بالحياة الواقعية» (فهد حسين المكان في الرواية البحرينية) هذا ما نجده في نص كاماراد الذي يسعى إلى خلق عالم متخيل ومقارب للواقع المعيشي.

خاتمة:

وظف "الروائي حاج احمد الصديق" في روايته "كاماراد" الفضاء الإفريقي كأيقونة سردية بمختلف تجلياته؛ فتجلت نظرته لهذا الفضاء في مختلف الحالات الطبيعية والثقافية والاجتماعية وحتى النفسية.

حيث وظف ذلك النسيج الفكري والحياتي الإفريقي بعجائبيته وغرائبيته, فبهذا تميزت لغة الرواية بخصوصية متفردة, فوصف كل كبيرة وصغيرة؛ ابتداء من وصف الأمكنة والمناظر إلى وصف الشخوص وملامحهم الفيزيولوجية التي تحاكي هوية المكان الإفريقي ليتشكل من خلاله الفضاء الإفريقي بمختلف أشكاله.

إفريقيا في رواية "كاماراد" كتيمة كانت فضاء متعينا في الواقع ممزوجا بخيال الكاتب, هذا الأخير استطاع أن ينقل للقارئ صورة المجتمع الإفريقي وما يعانيه من بؤس وحرمان, فكان ها النص بمثابة عالم متخيل مقارب للواقع المعيشي للإنسان الإفريقي.

قائمة المراجع:

الكتب:

- إبراهيم عباس . الرواية المغاربية , تشكل النص السردي في ضوء البعد الايدولوجي.دار كوكب العلوم , الجزائر . ط.1. 2014.

- حميد الحمداني . بنية النص السردي .المركز العربي للطباعة والنشر والتوزيع.ط1. 1991.

- عبد القاهر الجرجاني. دلائل الإعجاز . قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاك. دار المدني , جدة . ط3. 1992

- فهد حسين المكان في الرواية البحرينية, فراديس للنشر والتوزيع. ط1. 2003

محمد صابر عبيد :جماليات التشكيل الروائي.دار الحوار للنشر والتوزيع, ط1. 2008

- حسن نجمي شعرية الفضاء, المتخيل والهوية في الرواية العربية.المركز الثقافي العربي ط1. 2000

- ميشال بوتور , بحوث في الرواية الجديدة, ترجمة فريد أنطونيوس, منشورات عويدات بيروت , ط1, 1971

الروايات:

- الصديق حاج احمد :كاماراد .رفيق الحيف والضياع, فضاءات للنشر والتوزيع, ط1. 2015

كتب أجنبية:

- Julia Kristeva. Le texte du roman. Edmution. Paris